بعيداً عن "لوبية"، بعيداً عن "اليرموك"
رحيل يوسف اليوسف

في الثاني من شهر أيار / مايو الماضي رحل الناقد والمثقف الفلسطيني يوسف اليوسف في مخيم نهر البارد، كان قد وصل إلى المخيم في شمال لبنان قبل أسابيع قاطعاً رحلة نزوح مرعبة من مخيم اليرموك في سوريا بعد اجتياحه وقصفه وتحوله إلى ساحة قتال بين جيش النظام في سوريا ومجموعات الثوار.

يوسف اليوسف المولود في قرية "لوبية" قضاء طبريا في فلسطين عام ١٩٣٨، كان قد عبر نفس الرحلة اثر نكبة ٤٨ إلى لبنان ومخيم الجليل/ ويفل قرب بعلبك، ثم التوجه إلى مخيم اليرموك قرب دمشق في العام ١٩٥٦، حيث التحق بجامعة دمشق وتخرج منها.

يقول يوسف اليوسف "لم يؤسسني أفلاطون ولا أرسطو ولا الآمدي ولا الجرجانيان، أسستني النكبة".

هو كما كان يردد صناعة الاغتراب الذي هو شرط للكاتب وللانسان.

ابتعد عن الضوء وبقي في الظل عنيداً وساخطاً، ومترفعاً في سياق متكامل من النبل، تحصنه ثقافة شمولية ومعرفة عميقة في التراث والأدب والعلوم الانسانية والفلسفة، ما منحه تلك الفرادة والعمق في قراءته للواقع الثقافي العربي، وفي بحثه المضني عن مثالية مفقودة في خرائب المشهد الثقافي.

كان يرى ان الشعر هو "كمال اللغة" وكانت معاييره الجمالية وأحكامه المبنية على معرفة عميقة بالمنابع الكلاسيكية للثقافة قاسية تصل حد السخط.

اما الرواية العربية فقد وصل انتقاده لمنجزها حد السخرية معتبراً إياها بعيدة ونائية عن منجزها الأوروبي، حيث أدرجها في تيارين؛ الواقعية الفجة، والتيار التجريدي الخاوي من المحتوى الواقعي، وذهب في حكمه إلى القول: " إنها، أي الرواية العربية مازالت نتاجاً خديجاً لم ينضج".

في سياق هذا الانتقاد الساخط قلل من شأن معظم التجارب النقدية العربية المعاصرة، وانتقد خفة مناهج الجامعات وسذاجتها.

لقد أثرى هذا المثقف الشمولي المكتبة العربية بأعمال غنية بدأت من كتابه الإستثنائي حول الشعر الجاهلي في منتصف السبعينات، و"الشعر العربي المعاصر" و "تاريخ فلسطين" عام ١٩٨٩، و"مقدمة للنفري" عام ١٩٧٠ والعديد من القراءات والملاحظات والدراسات سواء المنشورة، أو تلك التي لم يتسن له نشرها. إضافة إلى مذكراته التي صدرت في ثلاثة أجزاء "تلك الأيام".

ننشر فيما يلي لقاء لم ينشر مع الراحل الكبير أجرته الزميلة (سلوى الرفاعي) في منزله في مخيم اليرموك، المنزل المتواضع الذي كان وجهة للعديد من المثقفين الفلسطينيين والسوريين والعرب في دمشق، بحيث تحول إلى ما يشبه صالوناً ثقافياً مفتوحاً ترك بصماته على العديد من تجارب رواده.

المحرر

الراحل يوسف اليوسف: "لم يؤسسني أفلاطون ولا أرسطو ولا الآمدي ولا الجرجانيان، أسستني النكبة"

حوار سلوى الرفاعي

• كيف تقيمون المشهد الثقافي العربي المعاصر من رواية وشعر ومسرح وفنون؟

- في ظني أن الضحالة (الفجاجة، أو السطحية) هي الداء الأكبر الذي أصاب الشخصية العربية في عصور الانحطاط، ولا سيما بعد وفاة ابن خلدون. ولقد بذلت هذه الشخصية جل جهودها للتخلص من ضحالتها، أو فقرها الجوهري، الذي هو في ماهيته نقص في النضج أو في العمق.

ولكنني أحسب أن الثقافة العربية في العصر الحديث قد بلغت إلى برهة عالية في الربع الثالث من القرن العشرين، أي إثر انتصاف هذا القرن نفسه. فلقد استطاعت الرواية العربية في تلك الآونة أن تلفت انتباه العالم، مما أدى مؤخرا إلى منح جائزة نوبل لنجيب محفوظ. وفي الوقت نفسه، ازدهرت القصة على يد كل من يوسف ادريس وزكريا تامر. واستطاع المسرح أن يعمم اسم توفيق الحكيم. أما الشعر العربي الحديث فقد بلغ أوجه مع جيل الرواد، ولا سيما السياب ونازك الملائكة وأدونيس وخليل حاوي. وفي ذلك الطور نفسه ازدهرت السينما العربية والغناء العربي، وبخاصة فيروز وأم كلثوم وسواهما. وتطورت الموسيقا العربية مع الرحابنة وعبد الوهاب والسنباطي وزكريا أحمد. وتقدم فن الرسم وأنتج بعض الأسماء المرموقة، ولا سيما نذير نبعة، الذي أرى أنه صاحب أسلوب معجز.

أما الربع الرابع من القرن العشرين، وبخاصة السنوات الاثنتا عشرة الأخيرة، فقد شهدت تراجعا ملموسا على جميع المستويات. لقد ضمرت الخصوبة الكيفية، بينما تضخمت الخصوبة الكمية على نحو لم يسبق له مثيل. فاليوم ليست لدينا مطربة بحجم فيروز، وليس لدينا شاعر بحجم أي من الشعراء الرواد. وما من روائي عربي مرشح لجائزة نوبل. كما أن يوسف إدريس لا تلاميذ له ولا أنداد في الساحة الثقافية.

ولكنني، مع ذلك كله، مترع بأمل فحواه أن الأمور سوف لن تظل على ما هي عليه، بل لعلها، تتقدم أو تتحسن، إن شاء الله.

• ما هو المنهج النقدي السليم، برأيكم؟ وهل هناك منهج نقدي عربي، أم ما زال النقاد العرب يعتمدون على النظريات الغربية؟

- المنهج المثالي لا وجود له على الإطلاق. ومن المؤكد أنه لن يكون هنالك إلا مناهج متباينة. وعندي أن أفضل المناهج هو ذاك الذي يتوسم ويسبر ويغوص ويتفطن ويحدس. إنه المنهج القادر على اكتشاف توترات النص وذبذباته وما ينطوي عليه من ذائقة ورهافة روح.

ولا ريب في أن المهمة النهائية للناقد هي استصدار حكم القيمة الناضج، وهو إنجاز لا يقوى عليه إلا الناضجون وحدهم. وهم، بكل توكيد، نادرون في أي زمان وأي مكان.

أما بخصوص المنهج العربي، فأنا أعتقد جازما بأنه ما من شيء بعد اليوم يملك أن يتشكل بمعزل عن أوروبا وثقافتها التي اجتاحت العالم كله وامتزجت بثقافات جميع الشعوب امتزاجا أدبيا لا فكاك منه بتاتا.

ومع ذلك، فإن النقد الأدبي في العالم العربي الحديث لا يخلو من خصوصية. وليس هذا الموضع هو المكان المناسب لشرح هذه الخصوصية. وفضلا عن ذلك، فإن من المتعذر أن يكون هنالك منهج نقدي واحد، إذ لا بد من مناهج متعددة، لأن التعدد، أو التباين، ظاهرة من أبرز ظواهر الحياة.

وأيا ما كان جوهر الأمر، فإن منهج التوسم الاستباري المبنى على قوة الحدس، التي هي الأقدر على النفاذ إلى مراكز الكائنات، لأنها تتأسس على موهبة اللمح الخاطف، أو على نزعة الاستقصاء الباطني ـ إن هذا المنهج هو أكثر المناهج قدرة على تخليص الروح البشري من الآلية والفجاجة والتسطح السخيف.

• من المعروف أنكم من المهتمين بالصوفية والدارسين لها. هل تستطيع الصوفية أن تخدم النقد الأدبي وأن تؤثر فيه تأثيرا إيجابيا وجوهريا؟

- قلت في البدء إن المثلبة الأولى للشخصية العربية الراهنة هي الضحالة أو الفجاجة، وهذا يعني التسطح والافتقار إلى العمق. وكل افتقار إلى العمق بالضرورة افتقار إلى الأصالة وعجز عن حيازة الماهية. أما الصوفية، وهي عندي ذلك التهجس للغموض، أو التحرش باللامفهوم، فإنها تنطوي على ضرب من ضروب الحنين إلى العمق، وذلك بسبب من ميلها الدائم نحو النزوح باتجاه الباطن.

فالصوفيون يقولون" : ما خدم ظاهر إلا على حساب باطن." ثم إن ابن عربي قد فهم اللغة من حيث هي إشارات،

أي بوصفها قوة رمزية بالدرجة الأولى. فها هو ذا يقول في "ذخائر الأعلاق": إن "اللسان العربي يعطي الفهم بأدنى شيء من متعلقات التشبيه." وهذا يعني بالضبط إحالة النص كله إلى رمز. وعند ذاك تغدو القراءة غوصا في العمق، أو سعيا وراء الحقيقة في منطويات المكتوب. وهذا ما يؤكده ابن عربي في موضع آخر حين يقول:" الحق ما ستره الحق وأخفاه." إذن، سطح الأشياء زائف، أما الحقيقي فمكتوم أو مخبوء، ولا يناله إلا أهل الشوط الطويل.

إذن، يسهم المنهج الصوفي أيما إسهام في الخلاص من الضحالة والفجاجة والتجوال فوق سطوح الأشياء. بل إن من شأن هذا التوجه إلى الأعماق أن ينتج النضج نفسه.

وبهذا تملك الصوفية أن تخدم النقد الأدبي، وأن تؤثر فيه، بل قل إنها تملك أن تؤثر في كل تفكير يبتغي أن يتعرف على كل ما هو جوهري في الحياة.

• تشهد المنطقة العربية مناخا يتصدر فيه النثر المشهد الأدبي. لماذا تراجع الشعر إلى الصفوف الخلفية؟

- لا أبالغ إذا ما قلت بأن الشعر قد ابتذل في هذه الأيام المعقومة، بل إن كل شيء قد فسد وصار إلى الغثاثة والرثاثة وسوء الحال. فمما هو ناصع أشد النصوع أن الشاعر قد أصبح مجرد كائن يرطن ويهوّم، بالدرجة الأولى. وهو كثيرا ما يعكر مناخ النص الذي ينتجه ليوهم الناس بأنه يغوص في أعماق الأشياء، دون أن يدرك ما فحواه أن العكر ليس العمق، بل هو لا يمت إليه بأية صلة على الإطلاق.

فبسبب من هذه الرطانة وهذا العكر اللغوي، يئس الناس من الشعر الحديث في الآونة الأخيرة، فانفضوا عنه، وما عاد له اليوم من القراء إلا عدد طفيف جدا. والحقيقة أن عصرنا الراهن هو عصر نثري. كما أن النثر أقدر من الشعر على شرح الشعور الحديث. ولهذا السبب أخذ الشعر بالتقهقر إلى الخلف ليصير النثر في مقدمة المشهد كله.

• في مستهل كتابك "ما الشعر العظيم" ترى أن حكم القيمة النقدي ينبجس من نبل الذائقة الوجدانية الخالصة، وسعة اطلاع الناقد، وجملة ثقافته النازعة إلى الموسوعية والشمولية. هل لنا بشيء من التوضيح؟

كما أنك تبحث عن قيم معيارية للشعر العظيم، ما هي هذه القيم؟

- لست أُومن بناقد لا يتذوق ولا يستشعر الجمال، كما لا أومن بناقد لا يملك أن يقارب النص الأدبي من حيث هو مجلى من مجالي الوجدان البشري. فالحياة عندي وجد، أو محتوى عاطفي، وليست مسألة هندسية يحلها طالب مدرسة متوسط الذكاء. ولا ريب في أن الجوهر الأولاني هو حقيقة الوجدان البشري الذي بواسطته نفتح نوافذ على داخل أي نص أدبي. وبإيجاز إن العلاقة بين الناقد والنص هي علاقة وصال واتصال من الداخل، أي من خلال الروح حصرا. وهذه هي الذائقة الوجدانية التي من شأنها أن تحيل المكتوب إلى حياة.

ولست أومن بناقد غير موسوعي، أو واسع الثقافة وغزير الاطلاع. وهذا يعني أن من لا يستوعب التاريخ والفلسفة وعلم النفس وفقه اللغة لا يملك البتة أن يكون ناقدا أدبيا على الأصالة، أو ذا نضج جدير بالاحترام. فحكم القيمة الذي هو غاية غايات الناقد، لا يتيسر إصداره إلا للناضجين وحدهم. ولا ريب في أن النضج لا يكون ما لم تكن هناك موسوعية أو اطلاع بلا حدود.

وبداهة، ما من قيمة بغير معايير، وما نقد أصلي إلا حيثما كانت المعايير. أما معايير الشعر التي أبحث عنها فهي الصدق والعمق والنضج. وقد بينتها في كتاب "ما الشعر العظيم"، كما بينتها في كتاب آخر عنوانه "القيمة والمعيار، إسهام في نظرية الشعر".

• ما هو برأيكم مفهوم الحداثة في الشعر؟

- منذ القرن التاسع عشر، ولا سيما في فرنسا وحصرا على يد ملارميه، قدمت الحداثة الشعرية من حيث هي طريقة في التعبير مبدؤها التلويح بدلا من التصريح، أو قل إنها الاعتناء بالأصداء من الأصوات، أو بالظلال بدلا من الأشياء. والحقيقة أن صنع الرموز هو برهة جوهرية في هوية الإنسان. ولكن الأمر حين يزيد عن حده فإنه ينقلب إلى ضده. فالرامز ما لم يكن موحيا، أو مشرقا، فإنه لا قيمة له البتة.

جزما، لا قيمة بغير عمق، ولا عمق بغير إيماء أو تأشير. ولكن ليس لنا أن نخلط اعتسافا بين الإيماء والعكر. فكل ما هو موغل في العتمة ليس سوى عماء، أو صنف من أصناف الفراغ. كما أن الإفراط في الإنارة تسطيح. ولعل الغبش أن يكون برهة الوساطة ذات القيمة النفيسة.

في الحق أن الحداثة قد صارت جفافا أو قحلا تنفر منه الذائقة، ويأباه الفؤاد الذي ليس من شأنه أن يرحب بما هو جميل فقط. ولهذا، لا أراني أبالغ إذا ما قلت بأن معظم شعراء الزمن الراهن هم أناس ينتجون الهذر والخواء والتزوير، بل إن حياتنا العربية اليوم مزورة إلى حد مزرٍ.

وعندي أن الشاعر الكبير والجدير بالتمجيد يتصف بمزيتين على الأقل: أولاهما أنه مغترب كبير ويكابد سوء التكيف مع الحياة، وثانيتهما أنه يبحث عن مثال، أو يحن بنهم إلى النقاء الذي أصبح شديد الندرة في هذه الأيام. وللحق أنني ما التقيت بمثل هذه الشخصية في الربع الأخير من القرن العشرين، لا في الواقع الحي ولا على صفحات الورق.

• هناك من يقول بأن الشعر الصوفي هو "أتفه شعر في اللغة العربية"، وبما أنكم من المهتمين بالشعر الصوفي، وممن لهم به خبرة طويلة، فما ردكم على هذا القول؟

- إنني أخول نفسي كامل الحق في رفض هذا المذهب دون أدنى تحفظ. فأنا أعشق الشعر الصوفي وأتذوقه بمتعة لا تدانيها أية متعة ذوقية أخرى. وللحق أن فيه رهافة وجدانية لا أجدها في أي صنف آخر من أصناف الشعر. فلا مبالغة في الذهاب إلى أن القصيدة الصوفية هي أصلح القصائد للتذوق، بل إنها حقا برسم الذائقة على نحو متميز.

كما أعتقد جازما بأن ابن الفارض هو واحد من أعظم الشعراء، لا في اللغة العربية وحدها، بل في جميع اللغات على الإطلاق. ولا أبالغ إذا ما شبهته بالموسيقى الكلاسيكية، أعني أنك لن تستطيع أن تعيش من دونه طوال حياتك إذا ما عشقته لمرة واحدة، تماما كما هو حالك مع الموسيقيين الأوروبيين الكبار.

أما "ترجمان الأشواق" لابن عربي، فإن فيه من القيم الإنسانية ما لا وجود له في الشعر العربي كله، قديمه

وحديثه. ولا بأس بعرض هذين البيتين الموحيين على القارئ كي يحكم بنفسه على هذا الديوان النادر:

قمر تعرّض في الطواف، ولم أكن بسواه عند طوافه بي طائفا

يمحو بفاضل برده آثاره فتحار لو كنت الدليل القائفا.

• يقول أنسي الحاج في "خواتم" بأن القارئ الجيد يدرك الحقيقة لأنه جيد، لا لأن النقد هداه إليها. ما هو، في رأيكم، دور الناقد كوسيط بين النص والمتلقي؟

- في قناعتي أن القراء جميعا حتى الأذكياء منهم، يملكون أن يستفيدوا من الناقد الجيد، الذي ينبغي أن يكون خبيرا بالنصوص الأدبية، وكذلك بتاريخ الأدب وتياراته وتحولاته. بل يسعك الذهاب إلى أن القارئ, أكان جيداً أم غير ذلك, يملك أن يستفيد حتى من قارئ آخر مثله, إذ إنّ لكل ذهن زاوية نظر لا تتوفر لسواه.

ولا ريب في أن كل قراءة هي استبار، وأن كل استبار هو نتاج لبصيرة اختراقية نافذة. والبصيرة الاختراقية لا يشكلها إلا التدريب الطويل والخبرة الشديدة الغنى ومن توفرت له هذه البصيرة الناضجة هو الناقد بأم عينه، سواء أكتب أم لم يكتب. وهذا هو من يملك أن يقرأ جيدا، وهو نفسه من يستطيع أن ينفع سواه من القراء. ولا بأس في التذكير بقول شكسبير: "النضج هو كل شيء".

• ما زال المثقفون العرب يترنحون تحت صدمة "التطبيع"، بينما يبرز إشكال العلاقة بين الثقافي والسياسي كواحد من أهم الإشكالات في الفكر العربي المعاصر.

كيف ترون هذا الإشكال، وهل يمتلك المثقفون العرب أدواتهم المستقلة وإرادتهم الحرة لتحديد خياراتهم الوطنية؟

- صادق في ذهني أن الكيان الصهيوني، المصطنع والطفيلي ليس سوى نبتة غريبة عن مناخ العالم العربي. ولهذا فإنه لا مستقبل له في هذا المكان. والصهاينة لم يفعلوا شيئا سوى أنهم قد أنشأوا صنفا من أصناف الغيتو على الطرف الجنوبي من الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وهم سوف يظلون محبوسين في داخل هذا الغيتو حتى يوم زواله الذي لا ريب فيه. وهذا يعني أن "التطبيع" مقولة وهمية أصلا.

من المؤكد أن هنالك مثقفين انتهازيين في العالم العربي. وللأسف، إن بعضا مما يظن بأنهم من كبار المثقفين قد عرضوا أسماءهم للبيع في السوق العالمية. وهم بذلك يخونون الوطن وشرف الثقافة في آن واحد، كما أنهم يضعون الثقافي في خدمة السياسي، أو النفيس في خدمة ما هو دونه. ولا أحسب أن الثقافة العربية سوف تتطهر من معضلة الإيجار والاستئجار في أي يوم من الأيام القريبة. فمما هو مثير للشفقة أن يترامى بعض الكتاب على أبواب السفارات الإمبريالية يستجدون زيارة إلى هذا البلد الإمبريالي أو ذاك.

ومع ذلك كله، فإن الكتاب الشرفاء والأنقياء، أو المهمومين بهمّ الوطن، أو همّ المصير العربي برمته، ما برحوا يشكلون الأغلبية المطلقة بين الكتاب، ولا ريب في أنهم سوف يبقون كذلك حتى قيام الساعة. كما أنهم سوف يثابرون على صيانة إرادتهم الحرة، ويحددون خياراتهم بأيديهم.